التخييل التاريخي ووظيفتا النص المعرفية والاجتماعية:
الفكر النقدي لدى عبد الرحمان منيف نموذجاً

Historical Imagination and the Cognitive and Social Functions of the Text: Abdel Rahman Mounif's Critical Thinking as a Model

د. عبد اللطيف الدادسي: جامعة مولاي إسماعيل – المغرب

Dr. Abd Al-Latif Al-Dadsi: Moulay Ismael University, Morrocco

Email: dadsiabdeltif@gmail.com

https://doi.org/10.56989/benkj.v4i5.871

الملخص:

تنشغل هذه الدراسة بتلقي الفكر النقدي الأدبي لدى عبد الرحمان منيف، وتحديدا تصوره عن ممارسة التخييل التاريخي. وتتحدد إشكالية هذه الدراسة في رصد تصور عبد الرحمان منيف حول ممارسة التخييل التاريخي؟ وانتهينا إلى نتائج أهمها أن ذاكرة البلاد العربية مبتلاة بالنسيان، ما يجعل بناء ذاكرتها ضرورة تاريخية. وهذا ما دفع منيف إلى استعادة التاريخ والذاكرة بشكل متخيل. فدوافع التخييل التاريخي هي التي أعطت للتاريخ والذاكرة أهميتهما اجتماعيا، ما يفضي إلى الاستنتاج بأن تخييل التاريخ والذاكرة يسند للرواية وظيفتين: الوظيفة المعرفية المتمثلة في معرفة الرواية بالواقع، ثم الوظيفة الاجتماعية المتمثلة في قدرة الرواية على تمكين الإنسان من التغيير الاجتماعي.

الكلمات المفتاحية: التخييل التاريخي، الذاكرة، النسيان، الرواية، المعرفة، الوظيفة المعرفية، الوظيفة الاجتماعية.

Abstract:

This study is concerned with receiving the literary critical thinking of Abdel Rahman Mounif, specifically his perception of the practice of historical imagination. The problem with this study is identified in the monitoring of Abdel Rahman Mounif's perception of the practice of historical imagination? Most importantly, the Arab country's memory is being forgotten, which makes building its memory a historic necessity. This prompted Mounif to recover history and memory imaginatively. It is the motives of historical imagination that have given history and memory their social significance, leading to the conclusion that imagining history and memory assigns two functions to the novel: the cognitive function of knowing the novel to reality, and then the social function of the novel's ability to empower the human person to socially change.

Keywords: Historical imagination, memory, forgetfulness, novel, knowledge, cognitive function, social function.

المقدمة:

لقد ارتبط التخيل التاريخي أو التخييل التاريخي أو الرواية التاريخية تنظيرا وممارسة بأسماء عدة غربية وعربية أمثال جورج لوكاتش وبول ريكور جرجي زيدان وعبد الله إبراهيم ومحمد القاضي وفيصل دراج ونبيل سليمان وواسيني الأعرج وعبد الرحمان منيف... إن هذه الحركية الإبداعية والنقدية التي حظيا التخييل التاريخي تؤكد من جهة أولى حاجة الأمم إلى تسريد التاريخ روائيا ما يجعل الروائي يشارك المؤرخ في بناء التاريخ، ما يعطي لهذا الأخير آفاق معرفية رحبة.

إن المتتبع للدرس النقدي الأدبي سيجد أن المكتبة العربية أضحت غنية من حيث إثارة الأسئلة وتقديم الإجابات على مستوى ممارسة التخييل التاريخي من طرف النقاد الأدبيين، لكن الأسئلة لا تتوقف ما دام التخييل التاريخي نشيطا في النصوص الأدبية الراهنية التي تسعى نحو تقديم معرفة جديدة بالماضي والإجابة عن أسئلة الحاضر واستشراف المستقبل. إن بحثنا هذا ينفرد اهتمامه باختيار جانب آخر، يتعلق الأمر بالروائي الذي يمارس التخييل التاريخي، فالمألوف هو أن أغلب الباحثين يدرسون الفكر النقدي من جهة النقاد وليس من جهة الأدباء الروائيين، فهناك أدباء كثر قد أثروا المكتبة العربية بالفكر النقدي حينما تحدثوا عن تجربتهم الإبداعية أو تجربة غيرهم، ومنهم نبيل سليمان في كتابيه: 1) سليمان نبيل: سيرة قارئ، دار الحوار، الطبعة الأولى، سوريا 1996. و2) نبيل سليمان – حوارات وشهادات، دار الحوار، الطبعة الأولى، سوريا 1995. ثم عبد الرحمان منيف الذي هو موضوع بحثنا.

لقد عُرِفَ عبد الرحمان منيف من جهة شخصيته الإبداعية بأنه روائي، وهذا هو الجانب الذي لقي اهتماما من طرف النقاد. وهناك جانب آخر في شخصية منيف، وهو أنه شخصية مهمومة بالفكر النقدي وواقع الكتابة الروائية في البلاد العربية، فقد ترك مؤلفات متمثلة في كتب نقدية وفكرية وحوارية.

مشكلة الدراسة:

إننا في هذه الدراسة، سنتلقى الفكر النقدي لعبد الرحمان منيف، متأطرين بإشكالية مفادها: كيف يتصور منيف التخييل التاريخي من موقعه الشخصي بصفته روائيا؟ ولأن تحقق النص الأدبي وانتشاره في المجتمع تكون له وظائف عدة أبرزها الوظيفتان المعرفية والاجتماعية، فكيف يتصور منيف هاتين الوظيفتين في علاقتهما بالتخييل التاريخي؟

فرضيات الدراسة:

- استحضار التاريخ في الرواية العربية ملازم لاستحضار الذاكرة فليس الماضي يأتي من التاريخ فقط بل من الذاكرة كذلك.
- التخييل التاريخي هو خطاب مراقب وموجه، ما يجعل توظيف الماضي التاريخي مهددا بالنسيان.

- الرواية أداة إنتاج للمعرفة ويمكنها أن تدعم واجب الذاكرة وعدالتها.
- الرواية أداة لتلبية الحاجات والمطالب المعرفية والاجتماعية.

منهجية الدراسة:

ولمقاربة هذا البحث، فسيتأطر هذا البحث بمنهجية تجمع بين تحليل المضمون واستنباط الأفكار سعيا إلى توضيح إشكالية البحث وضبط حدودها ثم تأكيد فرضياته. لهذا فقد توسلنا بمجموع الإنتاجات الفكرية والنقدية والحوارية للروائي عبد الرحمان منيف، والتي ستفتح الباب أمامنا لتلقي فكره النقدي أملا في رصد تجليات ممارسة التخييل التاريخي عند هذا الروائي.

أهداف الدراسة:

- البحث في تصور عبد الرحمان منيف عن مفاهيم مثل: تخيل الماضي – الذاكرة – التخييل التاريخي...
- رصد مفهوم التخييل التاريخي وأهميته من منظور عبد الرحمان منيف.
- إبراز أهمية التأويل في تخيل الذاكرة والتاريخ في الرواية.
- الكشف عن وظيفة النص الروائي المعرفية والاجتماعية في التخييل التاريخي.

1- تخيل الماضي: تخيل التاريخ أم تخيل الذاكرة؟

إن مسألة تمثيل الماضي في الرواية تحيل على ما يصطلح عليه عند المتخصصين في فن الرواية بـ"الرواية التاريخية" كما برز مع جورج لوكاتش أو "التخيل التاريخي" كما يوظفه عبد الله إبراهيم، والذي نفهمه من هذا المصطلح هو أن الرواية توظف ما كتبه المؤرخون (استعمال التاريخ)، وهو توظيف يُخرج الخبر التاريخي من سياقه إلى سياق جديد يبنيه الروائي. لكن ما محل الذاكرة وموقعها من التوظيف السردي في الرواية؟ هل التاريخ مرادف للذاكرة حتى يختصر تمثيل الماضي في التخييل التاريخي؟

إن الذاكرة لم تكن يوما ما ولن تكون مرادفة للتاريخ، فالذاكرة عامة، يمارسها الناس جميعا، ولا يمكن الاستغناء عنها، لكن التاريخ شيء خاص، فهو، بصفته ممارسة، يخص شخصا يسمى المؤرخ، والذي يمكن أن يقوم بوظيفته لغاية فكرية خالصة، أو يقوم بها لخدمة الدولة أو مؤسسة ما اعتبارا أنه تاريخ رسمي، والذي يتصوره بول ريكور على أنه "ذاكرة جماعية تم ترسيمها بدل إخضاعها لمبضع النقد."[1] ويمكن أن يتضح التاريخ من خلال طبيعة عمل المؤرخ، يقول بول ريكور: "إن عمل المؤرخ، مثل كل عمل حول الماضي لا يقوم إطلاقا على مجرد تثبيت وقائع بل كذلك على اختيار بعضها على أنها الأبعد أثرا أو الأكثر دلالة ثم وضعها مع بعض؛ والحال أن عمل الانتقاء والمزج

[1] بول ريكور: الانتقاد والاعتقاد، ترجمة: حسن العمراني، دار توبقال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2011. ص40.

هذا يتحكم فيه بالضرورة البحث، ليس عن الحقيقة، بل عن الخير."[1] في حين تتضح الذاكرة، حسب أمبرطو إيكو، في أنه "لا يمكننا، بدون الذاكرة، أن نحس بخبراتنا الطبيعية السابقة."[2] وهكذا تكون الذاكرة هي خبرتنا بما عشناه، ومعرفة هذه الخبرة تقوم على التذكر، كما أن الذاكرة هي القناة التي تربطنا بماضينا، وحسب بول ريكور، فـ"الوعي والذاكرة هما شيء واحد بعينه."[3]

إن صح ما قاله بول ريكور فالمؤرخ حينما يؤرخ فهو يصوغ خبرا معينا، لكن مسألة محاكمته من حيث الصدق أو الكذب، غير واردة عنده، لذلك يصبح التاريخ مرجعا قاصرا عن الإفادة بالمعرفة بالماضي. وسنقر بكلام ريكور، مع أن محاكمة نية المؤرخ في كتابة التاريخ غير ممكنة بالنسبة إلينا، ولكن قد يصدق كلام ريكور إذا صادق عليه مؤرخ ما. وفي المقابل نجد أن الذاكرة هي القناة الأولى التي تربطنا بالماضي قبل التاريخ، إذ إن "الإشكال في إعادة تمثيل الماضي لا يبدأ مع التاريخ، بل مع الذاكرة لما لهذه الأخيرة من امتياز في التعرف مباشرة وبشكل حدسي على الصور التي ظلت منطبعة وراسخة في أذهاننا باعتبارها علامة على ماضينا."[4]

1. مفهوم الذاكرة وطبيعتها في البلاد العربية:

يلتقي عبد الرحمان منيف مع أمبرطو إيكو في تعريف الذاكرة من خلال ما ساقه عن ناظم حكمت، حيث يتصور أن الذاكرة هي الدروس والعبر التي تستخلص مما عاشه السابقون، وكأن الذي يحيا الآن يتخذ من الماضي مرآة يتموقع بها في طريق الذي يسر فيه. يقول منيف: "وإذا كان الموتى لا يشغلون أناس القرن العشرين أكثر من سنة، كما يقول ناظم حكمت، فإن الصحيح أيضا أنهم لا يزاحمون الأحياء، وقد غادروا بعد أن تركوا أثمن ما لديهم: التجربة والذاكرة، وعلى الذين لا يزالون يمارسون فضيحة الحياة أن يستفيدوا مما تركه لهم السابقون."[5] وإذا نظرنا إلى أغلب الروايات التي كتبها منيف سنجد أنها روايات للماضي باختلاف الأزمنة والأمكنة، وفي هذا القول التالي سنجد أنه يتخيل الذاكرة وليس التاريخ، حتى وإن أشار في قول آخر إلى تخيل التاريخ، يقول منيف: "الرواية

---

[1] بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت 2009. ص144.

[2] Umberto Eco: From the Tree to The Labyrinth Historical Studies on The Sign and Interpretation, Translated by Anthony Oldcorn, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, London, 2014. P:544.

[3] بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، مرجع مذكور. ص168.

[4] عبد الله بريمي: السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، الأردن، 2018. ص137.

[5] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2003. ص72

تكتب أساسا من الذاكرة، أو من الأحداث التي يراها الروائي أو يعرف عنها أو يعيشها."[1] لا أعرف لماذا لم يميز منيف بين الذاكرة والتاريخ في قوله الأخير، هل يعتبرهما سيان ووجهين لعملة واحدة هي منفذ العبور إلى الماضي؟ ونراه مرة أخرى يتحدث عن أهمية التاريخ حيث يقول: "الإنسان يستمد من التاريخ قوة إضافية، ليس من أجل العودة إليه، فهذا غير ممكن، ولكن من أجل الاندفاع إلى الأمام."[2] فالذي نفهمه من كلامه هو أن التاريخ يعني ما عاشه السابقون واختبروه.

وينتبه منيف إلى بعض ما يسوء الذاكرة العربية ويجعل المشهد مبتلا بالتشويش حيث إن هذه الذاكرة، في رأيه، مأخوذة بالمظاهر، وخاضعة لاعتبارات آنية، ولذلك فهي أقرب إلى العطب، إذ تمتثل لواحد من حدين متباعدين: الماضي، خاصة السحيق منه، والذي يداور ويتم التحايل عليه على أمل استعادته أو التماهي معه. والحد الثاني: الغرق في اللحظة الراهنة، والخضوع لضجيجها بحيث يتعذر رؤية غيرها، أو أن يسمع صوت عدا صوتها.[3] هنا يتبين أن الذاكرة العربية ذاكرة غير سميائية، وغير منطقية، فالذاكرة الجيدة هي التي تتعرض للتأويل ما يمكِّن المتذكر من معرفة الأفيد بالنسبة للحاضر، فحينما أزلنا صفة المنطق عن هذه الذاكرة فمعناه أنها ذاكرة عشوائية لا يحكمها شيء. وقد بين منيف أسباب ذلك والتي تتمثل في اضمحلال الفكر العربي حتى صار لا يفكر إلا في لحظته الآنية حد الغرق فيها، ويمكن أن نعزو هذا الوضع إلى أن الإنسان العربي في القرن العشرين إنسان منفعل بما تعانيه المجتمعات العربية جراء الاستعمار والتخلف. ذلك أن مصير الذاكرة بين ذانك الحدين، حسب منيف، هو أن "كثير مما يجب أن يبقى في الذاكرة يتراجع ليحتل موقعا ويشكل علامة، ومما يزيد في اتساع الفجوة بين الجدير بالبقاء والاستمرار، وبين ذلك العارض الذي يفرض نفسه نتيجة الصوت العالي والمزاحمة غير المشروعة. فالذين ينحدرون إلى الغياب أو إلى العتمة لا يعودون قادرين على التأثير في الحياة التي استولى عليها غيرهم، وأخضعوها لمنطق مختلف، منطق القوة والمصالح."[4] وهنا يتسلط على الذاكرة نسيان مفروض، حيث تخضع الذاكرة العربية إلى قوانين التذكر، فلا يبقى من ذاكرة الضعفاء ومفقوري الأصوات إلا السيماء والأثر الضبابي، لدرجة أن من كانوا يحتفظون بتلك الذاكرة ماتوا أو تعرضوا للخرف أو حُرِموا من يشاركوا في بناء الذاكرة المشتركة. فحينما يُتاح للذاكرة العربية أن تذاع بطبيعتها المشتركة لا الأحادية فإن

[1] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت، 2007. ص26

[2] المرجع نفسه. ص129

[3] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص5

[4] المرجع نفسه. ص5 – 6

كثيرا من المصالح والمنافع التي قد تحصل عليها المؤسسات تصيرا هباء منثورا. وهذا ما يجعل الذاكرة تحت سيطرة الرقابة بأشكالها المختلفة.

2. ممارسة التخييل التاريخي:

إن السؤال الذي تطرحه مسألة التخييل التاريخي هو لماذا مصطلح التخييل التاريخي وليس الرواية التاريخية كما تصور ذلك جورج لوكاتش؟ هل المشكلة تعزى إلى الترجمة التي يتعرض لها المصطلح؟ ثم لماذا يجنح الروائي إلى التخييل التاريخي وهو المعني بالتخييل الروائي الذي يريحه ويعطيه مساحة كبرى من الحرية حتى يكون بعيدا عن إدانة ورقابة المجتمع والدولة؟ هل ميول الروائي إلى التخييل التاريخي مرده هو أن المؤرخين يخونون واجب الذاكرة وعدالتها كما يوظف بول ريكور وتزفيتان تودوروف هذين المصطلحين؟

1.3. الرواية التاريخية أو التخييل التاريخي:

أضحى مفهوم التخييل التاريخي بديلا إبداعيا عن الرواية التاريخية، رغم أنهما متشابهان لكنهما يفتحان باب اللبس، فقد يعتقد كل من يصادف مفهوم الرواية التاريخية أنه السرد الذي يروي التاريخ. فالرواية أعم من التخييل، لذلك فإن مفهوم التخييل التاريخي أرجح بأن يطلق على المهمة التي تسعى إليها الرواية في علاقتها بالتاريخ، وهذا ما يجعلها عملا فنيا مسعاه تخيل التاريخ. بعبارة أخرى أن التخييل التاريخي هو تفكير فيما وراء الأحداث والشخصيات والمواقف، "إن ما يهم في (الرواية التاريخية) ليس إعادة سرد الأحداث التاريخية الكبيرة، بل الإيقاظ الشعري للناس الذين برزوا في تلك الأحداث وما يهمه أن نعيش مرة أخرى الدوافع الاجتماعية والإنسانية التي أدت بهم إلى أن يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماما في الواقع التاريخي. وأنه لقانون في التصوير الأدبي الذي يبدو أولا متناقضا، ومن ثم واضحا تماما."[1]

فالذي ينفي عن الرواية التاريخية تمثيلها للتاريخ بشكل خالص هو ارتباطها بالحاضر، وهو ارتباط غايته تمكين أهل الحاضر من معرفة سياق حياتهم الحالية التي لا تجد في ارتباطها بالماضي أي عبث. ففي الرواية التاريخية حسب لوكاتش فالماضي والحاضر يندمجان حتى لا نستطيع التمييز بين كلام المؤرخ وأين كلام الروائي. فإنتاج رواية تاريخية حقيقية، حسب لوكاتش، يعني: "رواية تقرب الماضي إلينا وتسمح لنا بأن نعيش وجوده الفعلي والحقيقي. وبدون علاقة بالحاضر محسوسة، فإن تصوير التاريخ مستحيل. إلا أن هذه العلاقة، في حالة الفن التاريخي العظيم حقا، لا تتألف من التلميح إلى أحداث معاصرة، (...) بل من جلب الماضي إلى الحياة بوصفه التاريخ السابق للحاضر،

[1] جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد 1986. ص46

أي من إعطاء شاعرية لتلك القوى التاريخية، الاجتماعية والإنسانية، التي جعلت من حياتنا الحالية، في مجرى ارتقاء طويل، ما هي عليه وكما نعيشها."[1]

2.3. التخييل التاريخي من منظور الروائي عبد الرحمان منيف:

1.2.3. الحاجة إلى التخييل التاريخي:

لقد كان ممكنا بالنسبة للروائي عبد الرحمان منيف أن يكتب رواياته عبر وساطة التخييل الروائي، وهو الأسلم له والأسهل، لكن ظهر لنا لجوء منيف إلى التخييل التاريخي يكشف عن أن الروائي يريد إقناع المتلقي بأن ما يحكي عنه هو التاريخ الواقعي، والرهان هنا هو إغراء المتلقي باستكشاف ما أنتجه الروائي من أخبار وحقائق جديدة لا عهد للمؤرخين بها، ومنيف نفسه يؤكد أنه لو قام المؤرخون بوظيفتهم على أحسن وجه لما فكَّر هو في أن يمر من الطريق الذي سبق لهم المشي فيه وهو كتابة التاريخ، إلا أنه سيكتب التاريخ روائيا، يقول منيف: "إن الذاكرة العربية المعاصرة مليئة بالفجوات والأوهام، وقابلة لصياغات متعددة ومتفاوتة، تبعا لعوامل عديدة."[2] فما عبر عنه منيف بالفجوات هو تعبير عن مواطن النسيان المقصود أو الطبيعي ومواطن الشك والجهل بالأمور، ويؤكد هذا الرأي نزار مسند قبيلات بقوله: "إن الروائي يسعى إلى تبيان وجوه الحقيقة التي غفل عنها التاريخ والمؤرخون"[3] ونفسه منيف يتقاسم هذا الرأي الأخير، ما يدفعه إلى التأكيد على واجب الكتاب الروائيين الأحياء المتمثل بالامتثال لواجب الذاكرة وتمكين الماضي من أن يتصل بالحاضر ولا ينفلت رابط الوصل بين الزمنين، يقول منيف: "إن كتب التاريخ والسياسة تهمل الكثير من التفاصيل، وباعتبار أن التصوير الفوتوغرافي كان محدودا خلال تلك الفترة، وحكايا المسنين تتراجع وقد تنتهي إذا لم تجد من يدونها، فإن ميزة كتاب المراحل المبكرة أن ينتزعوا من براثن النسيان، ومن الغياب، هذه الكنوز لتكون جزءا من الذاكرة، وبالتالي لكي نتعرف أكثر على طبيعة الحياة التي كانت، وكيف واجه الناس التحديات وكيف تغلبوا عليها."[4]

عبد الرحمان منيف نفسه ينفي عنه مهمة التأريخ ولا حتى الاهتمام بوقائع التاريخ في ذاتها، ليؤكد في المقابل انشغاله وشغفه بالبحث في محيط هذه الوقائع التاريخية، ووسط هذا المحيط يجد الروائي الكثير من الناس والأشياء التي لا يعرفها الناس الآخرون والتي لم تجد الفرصة لتقول كلمتها ليكون الناس على علم بما عاشوه. فالمؤرخ مجبر على معرفة ما يدور في المركز، ما يخص

---

[1] جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، مرجع مذكور. ص63

[2] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص208

[3] نزار مسند قبيلات: من التخيل التاريخي إلى التأويل: في رواية الأسير الفلسطيني باسم خندقجي، كتاب جماعي: «في الحاجة إلى التأويل»، تنسيق: عبد الرحيم جيران – محمد الحيرش، منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الطبعة الأولى، تطوان 2018. ص210

[4] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص38

المؤسسات فقط، وهذا الوضع الذي يعيشه البحث التاريخي يدفع الروائي إلى التفاعل معه، يقول عبد الرحمان منيف: "لا تهمني كثيرا الواقعة التاريخية بل ما يحيط بها من ملابسات غير مدونة وغير رسمية. وهذه تشكل بالنسبة إلى حافزا للاستقصاء ومتابعة شخصيات معينة لمعرفة مصائرها ولمعرفة كثير من العوامل التي أثرت على حياتها وعلى مصيرها."[1]

بعد كل ذلك كله، حيث بينا الدواعي التي تدفع الروائي إلى تخيل التاريخ دون الاكتفاء بما قدمه المؤرخون، فنستدرك بإشارة منيف إلى تزكيته ما قام به كل الشهود الذين وثقوا ذكرياتهم وشهاداتهم انتصارا على النسيان، وذلك لأن منيف يرى في ذلك العمل التوثيقي جهدا قيما يسهِّل الطريق أمام الروائي. كما يرى أن ذلك العمل التوثيقي الذي قام به ويقوم به الشهود هو معركة بين القوى المنتصرة وأصحاب النفوذ وبين الطبقات المهمشة والمنكوبة، إنه صراع من أجل المستقبل، حيث إن الحاجات والمطالب والمنافع لا يحوزها إلا من استطاع جلب الماضي إلى طاولة الحاضر، واستطاع محاسبة الظلمة والجلادين، وحصل الاعتراف بالمظالم وجبر ضرر الضعفاء، يقول عبد الرحمان منيف: "إذا تم تدوين هذه الشهادات من خلال الإدلاء بها، سواء على شكل مذكرات أو ذكريات، فإن من شأن هذا، إذا تم، أن يزودنا بكم وافر من المعلومات والوقائع، ويجنبنا الاجتهاد والتقدير، أما بعد غياب الشهود الحقيقيين، ونظرا لعدم وجود التقاليد والوثائق، أو تحريفها والتلاعب بها، فلا بد أن يخلق الكثير من التداخل والتشويش، وبالتالي أن تعاد كتابة التاريخ أما بعد ، في هذا الجانب، وفقا لرغبات الأقوياء والمتنفذين، أو لأصحاب الأسماء التي تم صنعها وفقا لمقاييس معينة."[2]

2.2.3. الذاكرة والتاريخ في مواجهة النقد:

– **الروائي ممارسا للتأويل:** لقد عُرف التأويل عند أهله بأنه إنتاج المعرفة بالأشياء التي لا تفهم من الوهلة الأولى، ما يجعله ضرورة معرفية ونقد معرفية. ونحب أن نسوق مفهوم التأويل من حيث وظيفته، والذي نستخلصه من الوظيفة التي تقوم بها السميائيات الثقافية باعتبارها نظرية في تأويل العلامات الثقافية، يقول غو هونغ: "لقد عرَّف يوري لوتمان ومعه مدرسة موسكو تارتو في عام 1973 السميائيات الثقافية بأنها العلم الذي يدرس الترابط الوظيفي لأنساق العلامة والمتداولة في الثقافة."[3] إذن فالأشياء لا تفهم في ذاتها كأشياء معزولة، بل تفهم وتصير دالة حينما نحاول فهمها

[1] عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، طوى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، لندن 2015. ص56

[2] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص14.

[3] Guo, Hong, A Brief Introduction to and Semiotic, Analysis of Lotman's Cultural Semiotics, From the journal: Chinese Semiotic Studies, Volume 1 Issue 1, June 20, Editor-in-chief: Yongxiang Wang, 2009. p:158.

بالبحث في العلاقات والروابط التي تجمعها مع أشياء أخرى في سياق أو موضوع معين. لذا فلا يوجد حدث أو شخصية أو مكان ليس له علاقة مع أحداث وأمكنة وأزمنة وشخصيات أخرى، وفي هذا الترابط يعبر عن فكرة أو حقيقة معينة، وهذا الأمر لا يفيد في معرفة موضوع البحث التخييلي التاريخي فقط، بل يدفع الروائي إلى إلغاء كثير من الأشياء التي اعتقد أنها ذات جدوى.

إن الروائي وهو يؤول الواقعة التاريخية منطلق التخييل التاريخي يسعى إلى دراسة الترابط الموجود بين واقعة وغيرها من الوقائع والشخصيات... وهذا يجعل التأويل يشتغل على شكل نسق يضم مجموعة من المعايير التي تشترك فيها الوقائع التاريخية. وفي الصدد نفسه نجد عبد الرحمان منيف يقول: "طبيعي أن قسما كبيرا من "مدن الملح" هو نتيجة متابعة وقراءة وتدقيق في أحداث تاريخية وفي علاقات من نمط معين، وبعدها درست مرحلة النفط وكنت عملت في هذا الحقل خلال فترة طويلة، كان في ذهني أن التحدي الكبير الذي أواجهه هو كيف أحول مادة "مدن الملح" إلى مادة روائية. وهذا اقتضى بشكل كبير عملا أرشيفيا وقراءات تاريخية ورصدا للوقائع والأشخاص والحالات، وبالتالي كانت هناك مادة تسجيلية، ولكن هناك مادة أخرى من المخيلة."[1]

وما كان لمنيف أن يربح التحدي الذي واجهه أثناء تأليف رواية "مدن الملح" لولا أنه درس العلاقات الموجودات بين كل المعارف والمعلومات المرتبطة بموضوع الرواية. وينبهنا منيف إلى أن التأويل لا يكون فقط في دراسة الترابط بين عناصر موضوع البحث، بل يتجاوز ذلك إلى توظيف موسوعة الروائي (المخيلة) التي تمكن من جعل موضوع البحث غنيا وواضح من خلال الإضافات التي يُلحقها الروائي بموضوع البحث التخييلي التاريخي.

إن التأويل الذي يوظفه الروائي لا يخضع فقط إلى القوانين التي ترتبط وفقها الأشياء بعضها بعضا، بل يخضع كذلك إلى القوانين التي تنظم امتلاك معنى الأشياء في مجتمع معين، فهذه القوانين الأخيرة تسمى في السميائيات الثقافية بالقوانين الثقافية، اعتبارا أن الثقافة "مجال لتنظيم المعلومات في المجتمع البشري ومقاومة الفوضى."[2] لذلك كله وجدنا عبد الرحمان منيف يؤكد أن المجتمع (الثقافة) يتحكم في المعلومات التي تروج وتعتمد في فضائه الثقافي، وخلال هذا التحكم تعرف الرواية أشكالا كثيرة من النسيان، يقول منيف: "إن الحقيقة، في أحيان كثيرة، لا يتم الوصول إليها من خلال

[1] عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، مرجع مذكور. ص55 – 56.

[2] B, A, USPENSKU, ET AL, THESES ON THE SEMIOTIC STUDY OF CULTURES (AS APPLIED TO SLAVIC TEXTS), Translated by: Silvi Salupere, Edited by: Ülle Pärli, Tartu Semiotics Library 1, Tartu 1998, p.34.

التأمل والاستبطان، وإنما من خلال فهم القوانين الأساسية للمجتمع والعلاقات. ومن أجل الوصول إلى ذلك يفترض أن يجري البحث ليس فقط داخل الذات وإنما في المجتمع."[1]

- **الروائي ناقدا:** يجب أن نتنبه هنا إلى النقد هنا ليس محصورا في النقد الأدبي، بل هو النقد في عموميته، فهو نقد لكل شيء، لذلك فالروائي هو الكاتب لروايته، وهو القارئ الأول لها، وهو لا يقرؤها من منظوره الخاص فقط، بل يقرأها من منظور كل القراء المحتملين، لهذا تندغم هذه المنظورات في ذهنه وتتحكم في الصيغة النهائية للرواية، ونتيجة هذا التحكم يجد الروائي نفسه مجبرا على حذف كثير من الأمور والأحداث والشخصيات التي قد تجعله يندم فيما بعد على أنه وظفها. ومنيف نفسه يمارس النقد على روايته أثناء تأليفها، يقول: "كثيرا ما كان حضور الناقد في العمل الفني أحد عوامل كبحه، أي يمنع انطلاقته إلى المدى الأقصى، كما يحد من انفعال اللحظة."[2]

إن التأويل لا يكون ذا جدوى فعالة إلا إذا بلغ درجة النقد الذي هو وظيفة التأويل كما أشرنا سلفا إلى ذلك عند أمبرطو إيكو. وهنا يتبين أن المجتمع يتوسل بالتأويل لنقد كل ما يخص تجربته الاجتماعية ومعرفة عيوبها التي تحتاج إلى الإصلاح، ويمكن أن نتعرف على بعض هذه العيوب التي تحتاج النقد من خلال ما قاله منيف: "إن الذاكرة العربية المعاصرة مليئة بالفجوات والأوهام، وقابلة لصياغات متعددة ومتفاوتة، تبعا لعوامل عديدة. فإذا لم تصبح هذه الذاكرة نقدية، ومعتمدة على المقارنة والمحاكمة، ومستندة إلى قناعات ومواقف نتيجة الاستقراء والاختيار، لا نتيجة الإملاء والتلقين."[3]

3.2.3. التخييل التاريخي والحاجة إلى البحث عن التفاصيل:

إن الوقوف في مواجهة مع الماضي بأحداثه وشخصياته ومشكلاته يجعل المتأمل والباحث فيه في حالة من الحيرى والشك والقلق، وذلك نتيجة معرفة الحدث بدون معرفة سبب وقوعه، زيادة على أن الحدث قد تكون له روايتان أو أكثر... يتحدث عبد الرحمان منيف من تجربته: "أما حين تشير الرواية إلى الجانب التاريخي، فإنها تفعل ذلك بكثير من الذكاء والتلميح، إذ بمقدار ما تسجل الأحداث، فإنها تحاول اكتشاف ما وراءها من دوافع وأسباب، كما تقارن وتشير إلى أحداث مماثلة في أمكنة أخرى، لكي يُستخلص منها الدرس والعبرة."[4] إن الرواية تأتي بالتاريخ ليس على سبيل النقل، فهي لا تدَّعي قول الحقيقة، وإنما على سبيل التعميم وليس التخصيص لدرجة أن الرواية تجعل الحدث الواحد يتقاطع مع أحداث كثيرة وليس واحدا، وهذا ما عبر عنه منيف بالتلميح. فما يجعل الحدث التاريخي

[1] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص73.

[2] المرجع السابق، ص20.

[3] المرجع السابق، ص208.

[4] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص107.

يختفي، رغم أنه قد يكون موجودا في النص الروائي، هو الإضافة أو الحذف أو التعديل الذي يفرضه البعد المعرفي الذي يسعى إلى تحقيقه الروائي، فهناك أشياء إذا حذفت ظهرت مكانها أشياء أخرى غير متوقعة والشيء نفسه مع الزيادة.

يظهر مما سبق أن الحاجة الى التخييل التاريخي متمثلة في تزويد المتلقي بالمعرفة الآتية من الماضي. وهناك نقطة أخرى ينتبه إليها منيف، والتي نعبر عنها بالسؤال التالي: هل يستعيد الروائي التاريخ في خطابه الرسمي والعام والسطحي أم يفعل ذلك بالتركيز على التفاصيل ودقائق الأمور والأشياء؟ يقول منيف: "كثيرا ما يخطئ الكتاب في التعامل مع التفاصيل والأشياء الصغيرة، إذ يعتبرونها غير ذات أهمية أو قليلة التأثير، مفضلين عليها الأشياء ذات البريق أو القيمة، في حين يمكن أن تبنى لوحة فسيفساء."[1] إن التركيز على التفاصيل يجعل إدراك الأشياء والظواهر جيدا، فكلما سعى الروائي في بناء تفاصيل واقعة أو شخصية تمكن من معرفتها أكثر مما كان من قبل، بل يمكن أن يكتشف علاقات بينها وبين وقائع وشخصيات أخرى، ما يؤدي إلى اكتشاف أسرار كانت مستعصية على الفهم والتي تَهُمُّ موضوع البحث العام الذي يقوم به الروائي.

يتحدث منيف عن روايته «الأخدود»: "كان هناك تعمد مقصود في إيراد الكثير من التفاصيل في هذه الرواية لأنها أولا تخدم الشخصيات والأحداث، ولأنها الذاكرة الأخيرة لمجتمع لم يبق منه إلا ملامحه الأخيرة. هذا أولا، وثانيا في كثير من الحالات لا بد من وجود جذر حقيقي، أي واقعي، للشخصيات الروائية. هذا الجذر يساعد في إعادة بناء الشخصية، وإعطاء ملامح كاملة ودقيقة. لكن هذا لا يعني أن الروائي يلتقط صورا تجري تحت عينيه، يجب أن يعيد تشكيلها وتوزيعها ضمن الرؤية الشاملة للعمل الفني"[2].

حينما يتوسل الروائي بالتفاصيل، وهو يتخيل التاريخ، فهو موقن أن الحقيقة الغائبة تسكن فيها، فكلما دقق الروائي في مسألة ما إلا وازداد معرفة بها، إن كثيرا من الوثائق المنشورة والمتاحة في الواجهة تعبر عن حقائق غير مهمة ولا توجد في أي إثارة معرفية، لذلك وجب التعميق في البحث والخروج إلى الناس المعنيين بموضوع البحث التاريخي بعد اعتماد المكتبات ومؤسسات الأرشيف. زيادة على ذلك فالأشياء الصغيرة والمهملة إذا تم البحث في العلاقات المحتملة فيما بينها قد تكون ذات فائدة. لقد تطرق منيف إلى المجتمع الهارب من زمن الحاضر، أو لنقل المنقرض، فليس الإنسان هو المقصود وإنما خبرته بالحياة وأثره فيها، فإذا مات الإنسان ماتت مع خبرته وذاكرته، لذلك وجب الاحتفاظ بتفاصيل حياة هؤلاء الناس، فهي القادرة على جعلنا نتعرف على الحقيقة الكاملة. يقول

[1] المرجع نفسه. ص154

[2] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص177

منيف: "إن التفاصيل في بعض الروايات هي مفاتيحها الحقيقية، وعن طريقها فقط نستطيع أن نقرأ تلك الروايات قراءة صحيحة."[1]

إن التخييل التاريخي من منظور منيف ليس استعادة للماضي الذي هناك، وإنما بناء ماضي شبيه، إذ ليست غاية هذا النوع من التخييل هي معرفة الماضي وإنما تكين أهل الحاضر من التعلم من هذا الماضي. يقول منيف: "بالنسبة لمدن الملح – يقول منيف – قرأت كما كبيرا (من المعلومات والوقائع والوثائق) لا لكي أستخدمه كوثيقة، وإنما من أجل أن أبتعد، وبمسافة كافية، لإعادة صياغة التاريخ بخطوط موازية، وليست كوقائع فعلية حصلت."[2] وحتى لو أراد منيف أن يكتب التاريخ ولو على سبيل النقد والمراجعة فلن يجد إلى ذلك سبيلا، فلكل حدث أكثر من وثيقة وشهادة، فكيف ينجح في معرفة الصادقة من دونها؟ والشيء نفسه نجده عند الروائي وليد إخلاصي الذي يقدم رأيه في كيفية معرفة التاريخ، وذلك على لسان إحدى شخصياته: "استمع إلى كل شيء وصدق كل شيء، ثم تعرف على الحقيقة بهدوء، تلك هي الطريقة المثلى لمعرفة التاريخ."[3]

فبعد البحث في التفاصيل، يأتي كل من المقارنة والتروي في جمع الشهادات، وهذا هو السبيل لكي ينتصر الروائي على الشك والتيه والحيرى. لا يجب أن ننظر إلى كثيرة الشهود والروايات المتعلقة بالحدث الواحد نظرة امتعاض ويأس، بل يجب أن نحتفل بها، ولا نضع في أذهاننا أن الشاهد ينوي الكذب، إن بقدر ما يكون الشاهد صادقا فقد يكون كاذبا والعكس صحيح.

4- وظيفة النص

ونحن نتتبع الفكر النقدي الأدبي لعبد الرحمان منيف تبين لنا أن دائما يراهن على الكثير من الأشياء التي يريد تحقيقها من خلال رواياته العديدة، وإلا فما الداعي إلى كتابة روايات، الواحدة منها قد تتحدث عن المجتمعات العربية من المحيط إلى الخليج، لا تجلب سوى العذاب والتعب نتيجة تحمُّل الروائي لمسؤوليته أولا بصفته كاتبا وثانيا بصفته مثقفا رغم ما أصبح يذاع حول أفول المثقف؟ والظاهر أن الروائي حينما يُتِمُّ كتابة رواية ما فهو يتحرر منها لترتبط بالقارئ سعيا منها إلى أداء الوظيفة التي أسندها الروائي لها بصرف النظر عن فشلها أو نجاحها في ذلك. ونعتقد أنه ما كان لنا أن نوظف مصطلح وظيفة النص لولا اطلاعنا على المقالة التي كتبها يوري لوتمان وأليكسندر بياتيغورسكي بعنوان "النص والوظيفة"، وقد أشارا بأن وظيفة النص تُعَرَّفُ على أنها اجتماعيةٌ من خلال قدرة النص على تلبية مطالب معينة في المجتمع الذي نشأ فيه النص، فإن الوظيفة هي العلاقة

[1] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص79

[2] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص26 – 27

[3] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص98

بين النسق وتحققه، والمرسل إليه."[1] ولأن موضوع بحثنا الآن متعلق بالتخييل التاريخي والذاكرة بشكل خاص فيمكن الإشارة إلى أن دمج التاريخ والذاكرة في الرواية هو بحذ ذاته مشروع ذو سمة إبداعية وفعل مرهون بزمن مستقبلي، تعود هذه الفكرة إلى بول ريكور حيث يقول: "مقدور الذاكرة أن تستعيد زمام الأمور وتتقدم على تاريخ المؤرخين. ذلك أن الذاكرة هي دوما ذاكرة من له مشاريع. (...) يبقى أن الذاكرة هي التي تطل برأسها على المستقبل فيما يؤول التاريخ شطرا من الماضي وينسى أنه قد كان له مستقبل."[2]

وهناك وظيفتان يمكن إغناء التفكير بواسطتهما في وظيفتي النص المعرفية والاجتماعية فعلى مستوى العلاقة بين السرد والذاكرة والتاريخ يمكن استحضار وظيفة السرد، يقول عبد الله بريمي وهو يناقش مفهومي الأيديولوجيا واليوطوبيا اللذين اقترحهما بول ريكور: "إن وظيفة السرد ستكون مزدوجة أو هي وظيفة يمكن تأطيرها ضمن بعدين: بعد إيديولوجي يفسر كيف جاءت جماعة تاريخية أو ثقافة ما إلى الوجود، فلأكثر الشعوب والحضارات قصص وأساطير تُظهر نشأتها، وكيف يمكن لهذا البعد الإيديولوجي كذلك أن يشكل مصدر حماية لواقع هذه الجماعة وهذه الحضارات ويصونه. وبعد يوطوبي يستبق المستقبل ويبشر به، وكيف يمكن لهذا البعد أن يضع واقع تلك الجماعة التاريخية أو الثقافة موضع تساؤل."[3] فمن خلال الأيديولوجيا يشتغل السرد بصفته أداة لتنشئة الأفراد وتصييرهم كائنات ثقافية قادرة على إتمام مسار الجماعة البشرية التي ينتمون إليها، فالسرد حينما يحفظ الماضي يدعم التجارب الفردية والجماعية ويُجنّب الإنسان من الوقوع في الأخطاء التي سبق له أن عاشها. وعليه، فما نسرده في علاقته بالأيديولوجيا يكون إجابة عن السؤال التالي: ماذا نريد من الماضي؟ ويشتغل السرد من خلال اليوطوبيا بصفته منبها إلى ما قد يحدث في المستقبل، إن السرد يسعف الإنسان على توقع أحداث المستقبل، وهذا لن يتحقق دون وضع التجربة الاجتماعية أمام معيار النقد، حيث تدرك الجماعة البشرية عيوبها. ويتحدث بول ريكور عن الأيديولوجيا واليوطوبيا قائلا: "إن الأيديولوجيا في أشكالها الثلاثة تدعم، وتضاعف، وتحافظ؛ وبهذا المعنى تحافظ على الفئة الاجتماعية

[1] Yuri Lotman and Piatigorsky Alexander: Text and Function, Trans by Ann Shukman, New Literary History, Vol, 9, No, 2, Soviet Semiotics and Criticism: An Anthology, Published by: The Johns Hopkins University Press, (Winter, 1978). P:233.

[2] بول ريكور: الانتقاد والاعتقاد، مرجع مذكور، ص40.

[3] عبد الله بريمي: فلسفة التأليف بين الأدب والتاريخ هيرمينوسيا الزمن والمحكي عند بول ريكور، كتاب جماعي: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، تنسيق: اليامين بن تومي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2014. ص98.

وتصونها كما هي. عندئذ، تكون وظيفة اليوتوبيا، هي أن تقذف المخيلة خارج الواقع نحو "هناك" هو أيضا لا مكان."[1]

يجب أن نستوعب في سياق بحثنا أن الوظيفة الاجتماعية التي يمكن للنص أن يؤديها لا يمكن أن تتحقق أساسا بدون الوظيفة المعرفية للنص، والتي نتصورها بأنها قدرة النص على معرفة الواقع، ثم قدرة القارئ على معرفة ما يقوله النص. وفي الصدد نفسه يقول محمد بوعزة: "إن السرد ليس مجرد صيغة للكلام، أو متوالية من الأحداث، إن ما يميز طبيعته هو قدرته على التعبير عن الحاجات الضرورية للذات وإشباعها، حيث يقوم بدور التوسط بين الذات والعالم، ويشكل أداة للمعرفة وصيغة للوجود والكينونة. وتبين هذه الوظيفة المعرفية والترميزية الحاجة إلى ربط السردية بأنساق أخرى أكثر شمولية، اجتماعية وثقافية ومعرفية."[2]

إن أسئلة من قبيل هل يستطيع النص معرفة الواقع؟ هل يستطيع النص أن يجيب عن أسئلة هذا الواقع؟ هل يمكن للنص أن يجد صداه في المجتمع؟ تدفعنا إلى البحث في العلاقة بين الرواية والمعرفة وعلاقة النص بالقارئ الذي يشكل سلطة اعتبارا أنه قد يتمثل في كيان المجتمع أو كيان الدولة ما يجعل القارئ يمارس الرقابة على الروائي.

1.4. الوظيفة المعرفية للنص

1.1.4. الرواية والمعرفة:

هناك تعريف للرواية قدمه عبد الرحمان منيف، لكن ليس تعريفا للرواية بصفتها جنسا أدبيا، وإنما تعريف سيفضي بنا إلى امتلاك معرفة أكثر عن موضوعها ووظيفتها. يقول منيف: "الرواية، كما أفترض، هي قراءة حقيقية وصادقة للواقع مع كمية من الأحلام والرغبات في الوصول إلى واقع أفضل، إلى حياة أقل شقاء."[3]

إن تعريف الرواية، كما سقناه عن منيف، هو افتراض منه بصفته روائيا، ومن يقرأ رواياته قد يتاح له التأكد من هذا الافتراض. فمنيف يرى أن الرواية وهي تقوم بوظيفتها تشترط على الروائي أن يكون ملتزما أخلاقيا، حيث يستشعر مسؤوليته في قراءة الواقع الاجتماعي وتقديم وجهة نظره التي تنبع من ذاته بصدق. إذن فالرواية تمثيل لما وقع ويقع في المجتمع، ثم زيادة أشياء أخرى تدخل في الأحلام أو ما أسماه بول ريكور باليوتوبيا، والتي سنناقشها في محور لاحق. فلا يمكن للرواية أن

[1] بول ريكور: من النص إلى الفعل أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة – حسن بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2001. ص306.

[2] محمد بوعزة: نحو نموذج معرفي للسردية، كتاب جماعي: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، تنسيق: اليامين بن تومي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 2014. ص31.

[3] عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، مرجع مذكور. ص27.

تدفع الإنسان نحو التغيير إذا لم تجعله قادرا على الحلم وعلى الطموح وعلى الأمل، وهذا لا يكفي بدون جعل الإنسان واعيا بواقعه، فهل يمكن له أن يغير واقعا لا يعرف عنه شيئا؟

لذلك كله، فالعلاقة بين الرواية والمعرفة علاقة جدلية، حيث لا يمكن تصور الأولى بدون الثانية، إذ إن المعرفة أساس للرواية، فهذه الأخيرة تستمد قيمتها من الأولى. نجد ولسون كولن يرى بخصوص الرواية أن "خلقها الوحيد وهو المعرفة."[1] وهكذا تصيرا الرواية وسيلة للانتصار على الكذب والزيف والخداع في زمن لا يعلو فيه سوى الصوت الواحد وفي المقابل تغيب الأصوات الأخرى نتيجة لاختلال موازين القوى وفقد القدرة على مناهضة الإسكات.

نجد عبد الرحمان منيف يتقاسم الاعتقاد الأخير نفسه، يقول: "الرواية أداة معرفة، ولكنها المعرفة الجميلة إن صح التعبير. إنها تخاطب العقل والوجدان معا. تتوجه إلى الإنسان، وبتواضع، لكي تعلمه وتحرضه. إنها تفعل ذلك بالمناخ الذي تخلقه، بالحياة التي تعرضها، بالنماذج التي تقدمها، لكي تقول، باللمح والإشارة، ما لا تستطيعه الأدوات الأخرى."[2] إن مُنيف يؤكد على أن الرواية لا يمكن أن تكون أداة للمعرفة إلا إذا امتلكت المعرفة الجميلة، فهي جميلة لأنها تصبح مرغوبة ومفقودة في الآن نفسه لما تعرفه المعرفة من تغييب وتقييد وقمع. ويشترط منيف على المعرفة الروائية أن تكون عقلية حيث يكون الواقع المعقد والمتناقض والغامض أكثر وضوحا، ومن ثم يستقبلها العقل بإقناع تام، ثم أن تكون تلك المعرفة وجدانية لأن الرواية حينما تمكِّن من معرفة الواقع فهي تدعو وتحث على الفعل، لذا فالإنسان بقدر ما يقتنع بالخطاب العقلي فهو يحتاج كذلك إلى أن يقتنع عاطفيا ووجدانيا عبر الخطاب الانفعالي الذي يجعل الإنسان يتعرض للتحريض والحماسة.

نلاحظ مع منيف أن أهم شيء يمكن أن تملتك الرواية معرفة به في الواقع الإنساني هو الإنسان، لذلك فالخطاب التحريضي في الرواية لا يمكن أن يكون ذا أثر إذا لم يكتشف الإنسان من خلال قراءته للرواية أنه أقدر على الفعل عبر معرفة أنواع الكفايات والقدرات والمهارات التي يستطيع توظيفها حتى يعيش بسلام وينتصر على كل أشكال البؤس والدمار والتخلف. يقول: منيف: "إن كشف آلية القمع، تعرية الجلاد، التصدي لجميع مظاهر اضطهاد الإنسان، البداية لسقوط الجلاد وآلته القمعية؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى إن إبراز ما يتمتع به الإنسان من قدرات وإمكانيات على الصمود والتصدي، ومعرفته أيضا بكيفية المواجهة، من شأن ذلك أن يروض الجسد ويشحذ العقل والقلب، ويجعلهما قادرين على الاحتمال وعبور الدهليز المظلم. (...) أعتقد أن الرواية، في

[1] ولسون كولن: فن الرواية، ترجمة: محمد درويش، دار المأمون – دار الحرية، بغداد 1986. ص 127.

[2] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص42.

مجالاتها واحتمالاتها، يمكن أن تكشف الكثير من القوى الكامنة في الإنسان، أن تنبه لها، أن تحرض على استعمالها ليكون أقوى وأكثر ذكاء."[1]

إن الرواية وهي تروم إنتاج المعرفة بالواقع فهي تتيح للإنسان أن يمتلك الخبرة والكفاية المعيشية، خاصة أوقات المحن والأزمات، يقول ولسون كولن عن الرواية: "هدفها يشبه هدف التجارب الفكرية للفيلسوف وهو أن تعلمنا شيئا عن العالم الواقعي."[2] إن الإنسان لا يتعلم شيئا إلا ليوظفه في الحاضر وفي المستقبل، لكن منيف يتعامل مع هذه المسألة من منظور أكثر عمقا وهو جعل الإنسان يتعلم من تجارب السابقين، وبفضل خبرتهم التي توثقها الرواية على أنها ذاكرة يستطيع الإنسان توقع ما قد يأتي، يقول منيف مُعلِّقا على رواية "الرغيف" لتوفيق يوسف عوَّاد: "كُتبت رواية "الرغيف" لا لكي تكون شاهدا على أحداث الحرب العالمية الأولى، وما سببته من مآسٍ، وإنما لتقول أيضا ما ينتظرنا في الأيام الآتية. (...) وبالتالي تحض الناس لئلا يقعوا في الحماقة نفسها التي وقعوا فيها قبل عقدين فقط، وما يمكن أن يحصل فيما إذا اندلعت الحرب مرة أخرى."[3] إننا نعتقد في بعض الأحيان أن المعرفة بالماضي كافية، لكن وجب تحويل هذه المعرفة إلى نبوءة، حيث يمكننا أن نعرف المستقبل من خلال معرفة الماضي، وفي الصدد نفسه يقول بول بوست: "إن مصدر قوة الرواية الرئيسي يكون في قدرتها على زيادة وعينا دون أن تضللنا."[4] إن قدرة الروائي على جعل روايته تنبؤية هي نتاج توظيف المخيلة من خلال تفاعلها مع نصوص الماضي، وقد أكد منيف فيما أسلفنا ذكره أن للمخيلة أهمية كبرى، لذلك يمكن أن ندعم هذه الفكرة بما قاله يوري لوتمان: "أثر فني ما يمكن أن يموت ثم يعود إلى الحياة؛ بعد أن تم الحكم عليه بأنه متجاوز، يمكن أن يعود ليصبح متسما بالراهنية، بل تنبؤيا حينما يتحدث عن المستقبل."[5]

يتحدث عبد الرحمان منيف عن إحدى وظائف الرواية، والتي نتصورها على أنها صياغة هوية سردية للمجتمع، والتي لا يمكن لها أن توجد بدون معرفة الماضي والحاضر والمستقبل حول مجتمع ما، إننا أمام تصوير سردي للتحولات الاجتماعية في الزمن. لكن قيمة هذه الهوية السردية باعتبارها رصد للتحول تتمثل في ربط هذا التحول كحدث بحدث كبير هو السبب في وقوعه، ثم الانتهاء بكشف آثار التحول على البشر، لكن ينبهنا منيف إلى أن رصد التحول يجب أن يشمل كل الطبقات الاجتماعية حتى يستطيع السرد تقديم معرفة جيدة بالواقع، ولربما يمكن من خلال هذا الكشف الشامل

[1] عبد الرحمان منيف: بين الثقافة والسياسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء 2007. ص188.

[2] ولسون كولن: فن الرواية، مرجع مذكور. ص97.

[3] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص46 – 47

[4] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص73

[5] يوري لوتمان: سيمياء الكون، ترجمة: عبد المجيد النوسي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 2011. ص23

أن تظهر لنا أفكار لم تكن في الحسبان، وهذه هي قيمة الرواية إذ تعود علينا بأفكار كانت قابلة للنسيان. يقول عبد الرحمان منيف: "إن مهمة الرواية، أية رواية، رصد التحول الكبير الذي يأتي نتيجة حدث كبير، وقراءة انعكاسات هذا الحدث على البشر، سواء في المركز أو في المحيط. هذه هي مهمة الرواية بالدرجة الأولى، لا أن تعطي، بشكل مباشر، حكم قيمة، أو أن تنشغل بالتنظير لما حدث، إن نتائج مثل هذه تأتي فيما بعد، ومن خارج الرواية."[1]

2.1.4. نجاح تلقي النص شرطا لأداء الوظيفة المعرفية:

لنفترض أن روائيا ما، عبد الرحمان منيف نموذجا، قد أنهى كتابة روايته وجعلها في متناول القراء، فهل يمكن له أن يتيقن من نجاح تلقيها وبالتالي أداء وظيفتها المعرفية وبعدها وظيفتها الاجتماعية؟ إن الإجابة ستكون "لا"، إن الروائي مهما افترض وتوقع وفكر في نوع القراء المحتملين لن يجزم في نجاح تلقي روايته. لهذا يجب على الروائي أن يلتزم ويكون مسؤولا وجادا حينما يكتب روايته، ومن ثم ليتركها تتعارك مع قرائها. وبعد ذلك تأتي مسؤولية القارئ التي تتمثل في امتلاك القدرة على فهم ما يقوله الروائي، لا نقصد الفهم البسيط، بل الفهم العميق الذي يدفع القارئ إلى الاعتقاد بمجموعة من القيم والسلوكات والأفكار، فالاعتقاد بها يجعلها قيد الإجراء والتطبيق خلال الوجود الاجتماعي. هكذا يتصور عبد الرحمان منيف العلاقة بين الرواية والقارئ، فطبيعة هذه العلاقة هي التي تتحكم في اقتناع القارئ واعتقاده بما يقوله الروائي. يقول منيف: "إن صعوبة رواية من الروايات يمكن أن تؤدي إلى تفويت عناصر أساسية، كانت هدفا أساسيا لها. وفي مثل هذه الحالة لا أعرف نسبة توزيع مسؤولية الخطأ على القارئ والكاتب. إن لم يستطع الروائي أن يوصل رسالته إلى القارئ فهو لم يؤدِّ ما هو مطلوب منه. هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإن قارئنا اعتاد عادات سيئة، ولا يبذل جهد لاكتشاف الأشياء والوصول إلى نتائجها. هو اقتراب متبادل بين الكاتب والقارئ. وبمقدار ما بذل الكاتب جهدا لتوصي الرسالة، مطلوب من القارئ جهد مماثل لاكتشافها، كي يصل إلى وعي أفضل، إلى تعميق فهمه للأمور."[2] إن منيف خلال تأمله للعلاقة بين الرواية والقارئ يكون قد اقترح تصورا حول واجب الروائي وواجب القارئ، بل ونبهنا إلى أن الروائي يجب أن يفكر وهو يكتب في القارئ البسيط، رغم ما تمليه، أحيانا، قواعد الإبداع من لغة ترميزية وإيحاءات وتوظيف أفكار قد لا يعرفها إلا المتخصصين في العلوم. ويستدرك عبد الرحمان منيف القول ليحدد مؤشر نجاح تلقي الرواية، والذي يحدده في الأثرين الذهني والمعرفي، يقول منيف: فالرواية "إذا لم تخلق أسئلة أو هموما لا تكون قد وصلت – برأيي – إلى نتيجة مهمة."[3]

---

[1] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص185.

[2] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص134.

[3] المرجع نفسه. ص137.

3.1.4. الكتابة والرقابة وانتكاسة وظيفة النص المعرفية:

لقد أسلفنا الذكر أن الثقافة تنظم حركة انتشار وتبادل المعلومات داخل فضائها الاجتماعي كما يتصور ذلك رواد السميائيات الثقافية، وهذا يعكس الطبيعة الاجتماعية للإنسان وهي أنه كائن انضباطي. لذلك فالروائي حينما يبدأ في كتابة روايته لا يفكر في شيء سوى ماذا يسمح لي أن أقول وكيف أقوله ومتى. لهذا نجد عبر تاريخ الإبداع أن تقييد حريته أمر ساهم في تدهوره. إن الثقافة لا يمكن أن تقوم بهذا التقييد عبر تنظيم انتشار المعرفة إلا إذا اخترقت بهوس السلطة والقوة الذي يسكن كلا من المجتمع والدولة. إن الرقابة في وجهها الجميل لا تجُرُّ معها سوى جمال الإبداع الذي تصيره جيدا وقويا، وفي المقابل هناك الرقابة ذات الوجه القبيح، تلك التي لا تجر معها سوى المعاناة، فـ"الأدب في بلادنا مواجهة، مواجهة حامية صاخبة. مواجهة مع الذات، والمجتمع، ومع السلطة، والأدباء محاصرون، يمشون على الحبال (على حد تعبير كامو) فعليهم أن يكونوا حاذقين ليتمكنوا من الوصول إلى الناس وإلا سقطوا، وانعدم أثرهم. خاصة وأن الرواية كتاب، والكتابة سلعة خاضعة لسلسلة متوالية من عمليات الرقابة، والطباعة، والتسويق... وهذا ما يرغم الكاتب أن يقدم أحيانا بعض التنازلات بكل المرارة، وكل الألم."[1] إن الرقابة التي تتعرض لها الرواية وتخضع لها من طرف المجتمع والدولة تجعل الرواية تنتكس وتترهل ولا تستطيع تقديم الحقيقة كما يجب أن تقدم، بل كما يحب المجتمع والدولة، والنتيجة هي أن الواقع يبقى خارج الوعي الأدبي والقارئ المستهدف بالرواية يتلقاها فاقدة للطراوة والحيوية إذ لا تقوى على دفعه إلى الفعل والعمل على التغيير.

وينتقد عبد الرحمان منيف رقابة الدولة والمجتمع من جهة أن الدولة والمجتمع إذا كانا يريدان التغيير ويحلمان بمستقبل يحيا في العدالة والحق فلا بد أن يتصالحا مع صورتهما كما تعرضها المرآة الأدبية لا أن يرفضاها ويسعيا إلى محوها في حالة هيستيرية قوامها العنف. فلم يكن منيف ليبحث عن عيوب التجربة الاجتماعية والسياسية لأنه مهووسا بالمعرفة، بل لأنه مهووس بالتغيير والإصلاح، وإلا فما جدوى الأدب إذا لم يكن له دور في قول كلمة الحق وإرشاد المخطئين وتنبيه الغافلين وتقديم النصح للفاعلين السياسيين. وهكذا فهم الرواية كما يتصوره منيف هو رصد تاريخ الأخطاء التي تخص مجتمعات ترزح تحت مشكلة الانحطاط والركود، يقول منيف: "إنني كروائي، أبحث عن التناقضات في مجتمعي، أبحث عن الأمور القاسية والنابية، وأجعلها مادة لروايتي. بمعنى آخر أنا لا أخاف من كشف الغطاء، من تركيز الأضواء على المشاكل والعيوب، وأريد من الجميع أن يروا الأخطاء والنواقص، لقناعتي بأن معرفتها بداية حلها. أما أن تؤخذ قضايا جانبية، أو جزئية، وتعتبر

[1] عبد النبي حجازي: أنماط رؤية العالم في رواية السبعينيات مجلة الآداب، «الرواية العربية الجديدة»، العدد: 2-3- 1980. ص52 – 53.

أنها وحدها صورة العرب، فهذا لا يقبل به العقل أو الضمير النزيه، كما لا يصور المجتمع على حقيقته، وبالتالي يبقى سوء التفاهم والحذر."[1]

1.3.1.4. رقابة المجتمع والدولة تجسيدا للقارئ الضمني:

حينما يبدأ الروائي في كتابة روايته يضع في ذهنه قارئا هو المخاطب بهذه الرواية، وهو ليس بقارئ فعلي ولكن قارئ مفترض، إنه كائن من ورق. إن وراء وجود هذا القارئ غاية هي جعل الرواية محببة عند القارئ الفعلي، فمسألة المحبة بين الرواية والقارئ تحيلنا على أحد أنواع القراء الذين اقترحهم فولفغانغ إيزر وهو القارئ الضمني، ذلك الذي يعتبر "مجسد كل الاستعدادات المسبقة الضرورية بالنسبة للعمل الأدبي لكي يمارس تأثيره، وهي استعدادات مسبقة ليست مرسومة من طرف واقع خارجي وتجريبي، بل من طرف النص ذاته. وبالتالي، فالقارئ الضمني كمفهوم، له جذور متأصلة في بنية النص إنه تركيب لا يمكن بتاتا مطابقته مع أي قارئ حقيقي."[2] ويتصور رومان سلون القارئ الضمني بأنه "يساوي شبكة البني التي تغري بالاستجابة وتستهوينا لقراءة النص بطرق معينة."[3] لذلك نرى أن الرواية حينما تصبح في متناول القراء يكون ممكنا بالنسبة للمجتمع والدولة أن يستجيبا لمضمون النص ويتفاعلان معه، بل ويستهويهما لمعرفة ماذا قيل في الرواية.

إن القارئ الضمني تجسيد نصي لكل الشروط النصية، شكلية ومضمونية، والتي تجلب للنص قبوله الاجتماعي عند الفرد والجماعة، ونقصد بالقبول هو الرغبة في التفاعل وإبداء رد الفعل. إن النص حينما يتجسدا منضبطا لشروط وضوابط الإبداع التي يفرضها المجتمع والدولة فهو بذلك يستحضر رقابتهما على أنها قارئ ضمني، وبالتالي يكون هناك توافق بين الروائي من جهة والمجتمع والدولة من جهة ثانية. يقول منيف في هذا الصدد: "إن الرواية العربية لا تنفتح على كون مجرد، بل تتجه إلى قارئ له تاريخ ثقافي محدد، ويتعامل مع قيم جمالية وفنية محددة، والوصول إلى هذا القارئ أو تحقيق الاتصال معه، يفترض معرفة موروثه الفني، وعالم القيم الفنية التي تعرف عليها."[4] إن القارئ الضمني بالنسبة لمنيف يحضر في ذلك التاريخ الثقافي والموروث الفني والقيم الفنية وكل الأشياء التي بإمكانها أن تحدد نوع القارئ المفترض والموجه له بالرواية. فكيف يمكن للرواية أن تحدث أثرا إيجابيا في علاقتها بالواقع الفعلي إذا لم تستحضر أثناء الكتابة صورة للمخاطَب المفترض. وتقول فريدة النقاش في مسألة استحضار مراقبة الدولة للإبداع: "في "شرق المتوسط" التي يصدّرها

---

[1] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص202.

[2] إيزر، فولفغانغ، فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ترجمة: الجلالي الكدية وحميد لحميداني، منشورات مكتبة المناهل، فاس (بدون تاريخ). ص30.

[3] عاطف أحمد الدرابسة: قراءة في النص الشعري الجاهلي في ضوء نظرية التأويل، جدار للكتاب العالمي، الطبعة الأولى، عمان 2006. ص80.

[4] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص210

عبد الرحمان منيف بمقتطفات من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولا يحدد مدنا ولا دولاً... يجعل قضية بطله "رجب" – المناضل من أجل الناس، الشاعر الذي يأكله الهزال ويصيبه العمى ويموت – قضية للجميع. فهل يا ترى لو حدد مكانا بعينه في هذه البقعة الشاسعة من العالم التي هي أمتنا لقال أحد: لا، إن ذلك يحدث بالضبط في المكان آخر... إن الإدانة دامغة."[1] هكذا يتجه منيف إلى الخطاب التعميمي حتى ينجو من أصابه الإدانة والاتهام ويبقى القارئ ليس مهموما بمعرفة ماذا تقول الرواية فقط، بل منشغلا بالتساؤل عن أي بلد تتكلم الرواية، لكن يكفي منيف أن تحرك الرواية في الإنسان ذلك الجانب الحي فيه والذي يمكن أن يستجيب لتوجيهاتها. والحقيقة طبعا هي أن منيف مهموم بالعالم العربي أكثر من انشغاله برقابة الدولة والمجتمع. ويتقاسم نبيل سليمان الرأي نفسه مع فريدة النقاش حيث يقول عن رواية "الآن... هنا أو شرق المتوسط مرة أخرى" "تلك قصة رجب التي يسعى الكاتب كيما يجعلها قصة شرق المتوسط كله، كما يوحي العنوان، وذلك بتجريدها زمانا ومكانا، وهو التجريد الذي أوقع الكاتب في ورطة قاتلة، إذ إن نزع عن الرواية هويتها الواقعية وأبعادها التاريخية، وتركها معلقة في الفضاء بضبابية، مما جعل موقف رجب السياسي مثلا، والموقف السياسي عامة في الرواية مستغلقا على القارئ."[2]

2.3.1.4. الرقابة وإفشال واجب الذاكرة:

تستمد مقولة "واجب الذاكرة وعدالتها" التي اقترحها بول ريكور منطقها في هذا البحث من خلال وظيفة النص، حيث يصير استعمال الذاكرة من خلال التخييل التاريخي مشروعا، فواجب الذاكرة لا يؤدى خارج مشرعتها (تحويلها إلى مشروع)، يقول بول ريكور: "العدالة هي التي تستخرج من ذكريات الصدمة قيمتها المثالية فتقلب الذاكرة إلى مشروع، ومشروع العدالة هذا بعينه هو الذي يعطي إلى واجب الذاكرة شكل المستقبل."[3] وإذا تأملنا الرقابة التي تأتي من المجتمع والدولة وتستهدف مشرعة الذاكرة فإن السؤال الذي يحضر هو: كيف يمكن تحويل الذاكرة إلى مشروع وهي ذاكرة مبتلاة بالنسيان ومتلاعب بها جراء تسلط الرقابة؟

لننظر إلى الرقابة كما عاشها عبد الرحمان منيف، يقول: "أما كيف أتعامل مع رقابة المجتمع والدولة فإن الإشكالية الأساسية التي تثير حيرتي هي رقابة المجتمع. الدولة تدافع عن نفسها، تحصن نفسها، ولذلك تلجأ إلى القسوة والتمويه والمخادعة، وربما هذا حق من حقوق الدفاع عن النفس، ضمن منطق الدولة وأسلوبها. ولكن ماذا بخصوص رقابة المجتمع المقموع، المضطهد، والذي يمارس أيضا كل المحرمات سرا، ويتمتع بها إلى أقصى حد في الحياة اليومية، من خلال الشتائم والنميمة

[1] فريدة النقاش: نقاط أولية حول الاغتراب القسري في الرواية العربية، مجلة الآداب: الرواية العربية الجديدة، ع:2-3 فبراير – مارس 1980 ص34

[2] نبيل سليمان: سيرة القارئ، دار الحوار، الطبعة الأولى، اللاذقية 1996. ص140

[3] بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، مرجع مذكور. ص147.

والصور العارية والفضائح، وفي نفس الوقت، يمنع أن يكتب ذلك."[1] إننا نجد أن منيف يتقبل رقابة واحدة ويرفض أخرى لأنه لا يستوعبها فهو لم يجد لها مبررا، فرقابة الدولة مقبولة عند منيف لأن لها مبررا، فالدولة لا تقبل من يوظف الماضي الذي يحرمها من امتيازاتها ومصالحها، كما أن الدولة في حاجة إلى المراقبة حتى تدبر الشأن الاجتماعي وتنظم علاقات الأفراد. أما رقابة المجتمع فمنيف يرفضها لأنه لا يرى المجتمع أهلا للمراقبة، فحتى سلطته الأخلاقية مفقودة، لكن الظاهر أن المجتمع لا يحب أن يتحدث عن أسراره التي هي فضائحه، إن المجتمع لا يحب أن يكون موضوعا للأدب حتى وإن كان هذا الأدب وسيلة لتحريره من تلك المساوئ ومن كل أشكال المعاناة والمأساة. يقول منيف: "إن فضح إحدى الظواهر السلبية يشكل البداية لمواجهتها، تمهيدا للتخلص منها، ويأخذ الأمر شكل صراع، وهذا الصراع ربما يطول وقد يتعرج."[2]

ليس منيف هو الروائي الوحيد الذي عان من الرقابة، فهناك الروائي إبراهيم نصر الله، يقول: "الرقابة على الكتابة، إنها رقابة لا تعني، في جوهرها، المنعَ فقط، بل أن يجلس الرقيب معك ليكتب أهم مفاصل التاريخ، وأن يتحكم بوجهة نظرك تجاه الحياة."[3] إن كتابة الرواية على نحو التخييل التاريخي هي معركة حقيقية تجعل الروائي دوما حازما أمتعته لِيُسَاقَ إلى السجن إثر الكلمات الممنوعة والمكبوتة، يقول منيف: "أما المكبوتات التي أعالجها فهي السياسة، بالدرجة الأولى، وإن تكن، الاجتماعية هي الأهم، وأحاول، قدر الإمكان، أن أختصر جزءا من الأعداء الذين يريدون رأسي!"[4] إن اختصار الأعداء، كما يعبر منيف، هو عمل دؤوب على تلطيف الكلمات والمضامين وجعلها أقل شراسة وضراوة، وهذا يتم من خلال التفاوض الذي يعبر عن الحاجة إلى تسوية الشقاق والنزاع، فالتفاوض "أساسا استراتيجية للتأقلم والانسجام المتبادل، لا بين متحدثين مختلفين فقط، ولكن أيضا بين لحظات مختلفة تسهم في العملية المعتادة للسيرورة السميائية (السميوزيس). فالمعنى يبنى من خلال الفرضيات والتقريبات المتدرجة، في الممر الواصل تجربة إدراكية وتعريف محدد ومتمفصل لمفهوم ما."[5] وحينما يتفاوض الروائي مع المجتمع والسلطة فمعناه أن الصيغة التي وضعها المجتمع والسلطة للذاكرة والتاريخ لا تبقى كما هي، بل تتغير حسب نتيجة الحوار بين الروائي والمراقبين

[1] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص302.

[2] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، مرجع مذكور. ص174.

[3] محيسن إيناس: إبراهيم نصر الله، «الملهاة الفلسطينية» لا يمكن أن تكتمل. انظر الموقع الإليكتروني: الإمارات اليوم. (2020-04-29) https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2009-03-15-1.127576.

[4] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص303 – 304.

[5] عبد الله بريمي: السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية، مرجع مذكور. ص129 – 130.

الأخيرين، ذلك أن من يراقب يمعن دوما في الحظر؛ أي إلغاء جزء أو أجزاء من الذاكرة والتاريخ، ويجب أن نتنبه إلى أن الإلغاء الذي يحدث في التفاوض ليس إلغاء لصوت الآخر، بل هو محاولة لتحقيق المنفعة المشتركة. يقول منيف عن مواجهته للرقابة وتفاوضه مع من يمارسونها: "الرقابة التي أمارسها على نفسي فإنها جزء من رقابة المجتمع، أحاول، قدر الإمكان، أن أتجاوز الخط الأحمر، أنجح مرة وأفشل مرة. أسأل نفسي: هل أستطيع أن أقول هذا، وبهذا الشكل أمام الذين أعرفهم؟ أصل إلى نتيجة إيجابية مرة، لكن مرة أخرى ألطف وأستبدل، وأصل في النهاية إلى مصالحة ما. لكن حتى هذه المصالحة، التي تتمسك بكلمات مهذبة أو نقاط، يقرأها الآخرون على حقيقتها."[1]

إن سعي الدولة إلى مراقبة إعادة إنتاج الماضي تكون مدفوعة بمشاعر الخوف من فقدان المنافع، وهذا ما يجعلها وحشا شرسا لا يراعي ولا ينتبه لأحد، يهدم ويقتل ويسجن ولا يبالي، ويتصور ميشيل فوكو هذا الوضع حيث يقول: "لا شيء أضعف من نظام سياسي لا يكترث بالحقيقة؛ لكن لا شيء أخطر من نظام سياسي يدعي تحديد الحقيقة. (...) لا ينبغي لوظيفة قول الحقيقة أن تأخذ شكل القانون."[2] إن ضعف النظام السياسي متمثل في نبذه وتجاهله للحقيقة التي يمكن أن تدعم استمراريته ولربما تقوي دعائم شرعيته في المجتمع، لهذا فالحقيقة عند فوكو في كل المنافع الزائلة والذاتية، فإذا تسلط القانون على عملية إنتاج الحقيقة فانتظر تأبيد العبودية وحرمان المظلومين من حقوقهم المادية والمعنوية، خاصة إذا لم يشارك ممثلو ذوي الحقوق في صياغة وتشريع هذا القانون على مستوى البرلمان.

2.4. الوظيفة الاجتماعية للنص

إن للوظيفة الاجتماعية علاقة جدلية مع الوظيفة المعرفية، فالأخيرة شرط للثانية وأساس لممارستها، فلا يمكن للمطالب والحاجات الاجتماعية أن تلبى إذا لم تعرف من حيث ماهيتها، ومتى نطالب بها وكيف نفعل ذلك. لهذا يركز تزيفيتان تودوروف على أن السلوك والفعل في الزمن المعاصر يحتاج إلى تخطيط ووضع تصور، وهذا لن يتأت إلا بتوظيف الماضي القائم على الوظيفة المعرفية للنص الروائي. يقول تودوروف: "مهمة الذاكرة الانتقائية هي الاحتفاظ بأحداث الماضي التي قد تقود خطانا في الحاضر."[3] فحينما تحدد الكتابة موضوعها وتنتهي من تناوله يبدأ دور القارئ المتمثل في تلقيها والاستجابة لها، لأن الوظيفة الاجتماعية تبدأ بعد الانتهاء من قراءة الرواية، حيث ينظر إلى كتابة الرواية بصفتها فعلا، وينظر بالمقابل إلى تلقيها بصفته قناة لنشوء رد الفعل.

[1] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص302.

[2] ميشيل فوكو: الانهمام بالحقيقة، مرجع مذكور. ص37.

[3] تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة خلاصة القرن العشرين، مرجع مذكور، ص311

ومن ذلك كله، فالرواية تكتسب أهميتها حينما تواجه المجتمع وتكشف عن الحقيقة المغطاة وتعطي البديل الإجرائي؛ حيث تقدم إجابة عن السؤال المحتمل طرحه وهو "ما العمل؟" ويرى منيف أن: "الدافع الأساسي للكتابة أن تواجه موقفا أو حالة تتطلب التغيير على المستوى الاجتماعي والسياسي، أكثر مما هي في مواجهة تحد إبداعي."[1] إن منيف هنا ينبهنا إلى أن الرواية العربية في زمنه كانت مطالبة بأداء واجبها الاجتماعي والسياسي، وأن أي نقد لائم يوجه صوب جودتها أو قوتها الإبداعية هو نقد ليس في حينه، إذ إن النقد المهم هو النقد الذي يدعم واجبها في علاقته بالمجتمع. فالوضع المأساوي الذي عاشته الشعوب العربية أشعر الرواية العربية بضرورة المساهمة في تغيير المجتمعات العربية، لكنه هناك تنبيه ضروري لعبد الرحمان منيف، وهو أن الرواية لا تقوم بالتغيير، ولكن تنشئ أسبابه وتوفر بيئته وشروطه. يقول منيف: "إن مهمة الرواية هي أن توصل كمّا من المعلومات والوقائع وأن تجعل الناس أكثر قدرة ووعيا لواقعهم وأن تحرض أقوى ما فيهم من المشاعر، من أجل أن يكون فاعلين. إن الرواية – أو أي عمل أدبي – لا يمكن أن تغير الواقع. إن الإنسان هو من يغيره، والإنسان حين يكون بالنتيجة أكثر فاعلية، ومهمة الرواية أن تساهم في خلق مثل هذا الإنسان."[2]

ومن خلال مقترح عبد الرحمان منيف يتبين أن الوظيفة المعرفية للرواية ملازمة لوظيفتها الاجتماعية، إذ إن المجتمع يتغير بقوة الإنسان وإرادته وقدرته على الفعل، والفعل كذلك يتطلب معرفة بدوافعه ونتائجه، وهذه المعرفة متمثلة في تشبث الإنسان بالأحلام والطموحات والرغبة في العيش في حياة مشبعة بالحب والسلام والرفاه والقدرة على الاستمرارية وتأمين الحاجيات. لذا فرهان الرواية على بناء الإنسان من خلال تخييل التاريخ يدفعها بالدرجة الأولى إلى توظيف شخصيات تقترب من العجائبية وهي ليست كذلك، لأنها تحمل جذورها من الواقع الاجتماعي وتقدم نموذج للإنسان الأقدر والأنفع والمشبع بالبطولة، ونجد منيف يكشف عن تجليات تمثيل الشخصية الروائية في التخييل التاريخي، يقول منيف: "الشخصية الروائية ليست هي الشخصية الموجودة فعلا، ولكنها الشخصية التي يمكن أن تكون. ولذلك فإن أنماطا من الشخصيات التي قدمتها هي في الحقيقة مزيج، أو خلاصة من عدة شخصيات في شخصية واحدة."[3] هنا يتبين أن منيف يقترح نموذجا للإنسان الذي يحمل في ذاته كل إنسان من حيث قوته وقدراته وعواطفه وهمومه وأحلامه وطموحاته، لكن بأسلوب منطقي أقرب إلى الواقع بكثير وأقرب إلى الغرابة بقليل لأن هذا النموذج الإنسان الذي قدمه منيف لا يوجد في الواقع ولكن يدعو أن يوجد وأن يصير وجوده ضرورة.

[1] عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، ص20.

[2] عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، مرجع مذكور. ص27.

[3] عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، مرجع مذكور. ص123.

إن الإنسان في بعض الأحيان يرى أن حل مشاكله مرهون بدراستها والبحث فيها، ولكن الحل أحيانا أخرى يتطلب التأمل في التاريخ وإدامة النظر إليه، لأن الواقع المليء بالمشاكل والأزمات يكون محاطا بالأوهام والكذب والزيف، لكن إذا تم توظيف التاريخ في المعرفة بالواقع الراهن يمكن أن يصير هذا الواقع أكثر وضوحا ويكون بإمكان الإنسان أن يرى إلى أين يتجه به المسير. لذلك تكون الحاجة إلى التاريخ ضرورة ملحة بالنسبة للكتابة الروائية. يقول منيف: "ليس هدف الكاتب أن يواجه التاريخ وإنما أن ينسجم معه وأن يكون جزءا منه. لكن التاريخ الحقيقي هو تاريخ الشعوب، تاريخ الناس البسطاء المملوئين رغبة في حياة بسيطة وصادقة ومن دون عسف ومن دون فقر. فلا أقل من محاولة أن يكون إلى جانب البسطاء والفقراء لكي يشد من أزرهم ولكي يتعاون معهم من أجل الوصول إلى صيغة تساعد على أن يحاولوا ذلك. (...) التاريخ الحقيقي هو تاريخ الناس وليس تاريخ الحكام والأقوياء فقط."[1] يظهر أن عبد الرحمان منيف يرْهن الرواية لخدمة طبقة من المجتمع وليس المجتمع كله، إيمانا منه أن المجتمع الذي يتطلب التغيير هو مجتمع البسطاء والفقراء والمحكومين والبؤساء، أما مجتمع الأقوياء والحكام والسلاطين فهم في غنى عن التغيير لأنهم في منأى عن المشاكل والأزمات والمحن.

ونجد عبد الرحمان منيف أنه حينما عاد إلى الخبرة التاريخية للمجتمعات العربية وجد أن استثماره لتلك الخبرة بغية تحصيل التغيير الاجتماعي والسياسي سيكون أكثر فعالية إذا تم التركيز على الثقافة الوطنية لهذه المجتمعات. فحينما يجد التاريخ والذاكرة من يدرسهما على مستوى الكتابة الروائية فهذا أمر يدعم الثقافة الوطنية التي ظلت تعاني المحن جراء الاستعمار الذي لحق هذه المجتمعات، وهو ما جعل منيف مجبرا على البحث بدءا على الإجابة عن السؤال التالي: ماذا يجب أن نتذكر؟ يقول منيف: "وفي إطار تجديد الثقافة الوطنية، وجعلها أكثر فعالية وحيوية، لا بد أن نستفيد من تجارب الماضي، وأن نوظف العناصر الحية والإيجابية في الإيديولوجيا، وأن نفضح التلفيق الذي تلجأ إليه بعض المؤسسات والشخصيات."[2]

إن البحث في الوظيفة الاجتماعية للنص الروائي الذي يتخيل التاريخ حسب منيف يحيلنا على مصطلح الرد بالكتابة،[3] حيث إن الرواية سترد على الروايات والمرويات الرسمية التي سعت إلى

[1] عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، مرجع مذكور. ص36 – 37.

[2] عبد الرحمان منيف: بين الثقافة والسياسة، مرجع مذكور. ص39.

[3] لقد برز مصطلح الرد بالكتابة، حسب تقديرنا، مع الدراسة التي نشرها كل من بيل أشكروفت وغاريث غريفيث وهيلين تيفن، انظر: الإمبراطورية ترد بالكتابة آداب ما بعد الاستعمار: النظرية والتطبيق، ترجمة: خيري دومة، أزمنة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2005. وقد تساوق مصطلح "الرد بالكتابة" مع دراسة آداب ما بعد الكولنيالية، تلك الآداب التي تنازع الاستعمار في تركة الماضي وتعيد طرح قضايا الماضي الاستعماري قصد النضال ضد مصالح الاستعماريين، وذلك في قالب أدبي يستجوب الآخر سعيا إلى استبدال الإساءة والإقصاء بالإحسان والاعتراف.

طمس ثقافة وهوية المستعمرات لتسهيل استعمارها وتأبيده. لهذا فالحوار مع الغرب أصبح ضرورة ملحة لمعرفة ماذا يجب أن نتذكر حتى نقاوم ونناهض التمثيلات والسرديات التاريخية الكاذبة، يقول عبد الرحمان منيف: "إن الثقافة الاستعمارية التي سادت خلال فترة طويلة تحت عنوان وحدة العالم ووحدة ثقافته هي في الحقيقة سيطرة ثقافة القوي، المركز، وإلغاء، في نفس الوقت، أو تهميش الثقافة الوطنية، أو التعامل معها على أنها ديكور أو فولكلور. (...) ولذلك أصبحنا نواجه حالة مركبة وشديدة التعقيد، الأمر الذي يستوجب إعادة تحديد مفهوم الثقافة والمضامين التي يجب أن تحملها في مرحلة تاريخية معينة. لا يعني ذلك، وكرد فعل لما ساد خلال فترة سابقة، رفض كل شيء غربي، والانعزال."[1]

الخلاصة:

لقد كان هذا البحث فرصة لتجديد الحوار بشكل افتراضي مع الروائي الناقد عبد الرحمان منيف، حيث جعلنا هذا الحوار متسما بالانتقائية التي اقتضاها مدخلنا التحليلي المتعلق بقضية التخييل التاريخي، والتي تفرض نفسها كلما أثير النقاش حول الكتابة الروائية عند عبد الرحمان منيف، إذ إن أغلب رواياته هي متخيلات تاريخية.

إن الذي يمكن قوله في خاتمة هذا البحث هو عبد الرحمان منيف وهو يتخيل التاريخ لم يكن مهموما بتشييد نص روائي جيد، بقدر ما كان همه هو امتلاك ذاكرة وتاريخ للشعوب العربية، تلك الشعوب التي ضلت تحت رحمة الصمت والإسكات والنسيان والزيف والكذب والوقوف أمام شرفة المجهول حتى أضحى الإنسان العربي لا يجد إجابة عن السؤال الذي ظل يؤرقه ويعذبه وهو: ما العمل؟ لذلك، ونحن نتلقى عبد الرحمان منيف، نشير إلى أن التخييل التاريخي في حقيقته هو تخييل للماضي، والذي يجعل الذاكرة والتاريخ متخيلين، فلو كان الروائي يتجه صوب التاريخ ليتخيله فهذا يعني أنه يذهب ليعيد كتابة ما كتبه المؤرخ، ولنتجرأ ولنقل إنه يتجه إلى التاريخ ليصحح أخطاء المؤرخ. لذا فالعودة الروائية إلى الماضي هي عودة تستفيد من تجربة المؤرخين ومما حفظته الذاكرة باختلاف مواقعها البيولوجية والأرشيفية المادية.

ولقد تبين لنا أن التخييل التاريخي، كما اختبره عبد الرحمان منيف، ليس عملا آمنا ومريحا ومحاطا بالهناء، بل يشوبه الألم والمعاناة والخوف والشك، إذ إن التخييل التاريخي هو استعادة للماضي التاريخي وطرحه على طاولة المحاسبة العادلة، فالتذكر يُظهر الظالم والمظلوم ومن له الحق، وهذا ما أوقع الروائي منيف وغيره في المعاناة من الرقابة والحساب والإدانة من طرف المجتمع والدولة. إن الرواية وهي تستعيد الماضي تتيح للناس فرصة التعلم من الماضي، ويتم بناء الإنسان

[1] عبد الرحمان منيف: بين الثقافة والسياسة، مرجع مذكور. ص23.

وتمكينه من التغيير، وهكذا يصير حقا القول إن الرواية وسيلة لإنتاج المعرفة الفعالة، والتي من شأنها خدمة المجتمعات العربية، ثم إن الرواية بهذه الحال تعيد للتاريخ والذاكرة أهميتهما في الحياة الاجتماعية، وذلك في زمن أصبحت فيه المجتمعات العربية تفرط في التاريخ والذاكرة.

إننا مع عبد الرحمان منيف نكتشف مرة أخرى أهمية التخييل التاريخي إذ تبين أن الذاكرة العربية مبلاة بالنسيان، وأن كثيرا من الأسئلة التي هي من تركة الماضي بقيت بدون إجابة، ثم إنه يجب علينا ألا نعول على المؤرخين دائما رغم أهمية ما ينتجونه. فأهمية التخييل التاريخي تتمثل في شغفه بالبحث عن التفاصيل، لأنها تقوي المعرفة بما حدث سابقا في الماضي، فقيمة المعرفة التاريخية لا تتجلى في معرفة ماذا وقع، وإنما في معرفة كيف وقع الذي وقع.

حينما افترضنا سابقا أن التخييل التاريخي لا يتنصل من الذاكرة فقد كنا مؤمنين بأهمية الجمع بين الذاكرة والتاريخ، فتحصيل الذاكرة لا يكون بمحاورة كتابة المؤرخين، بل بالبحث الميداني من خلال توثيق الشهادات الشفوية واستعمالها دليلا لنقد الذاكرة في عموميتها ثم تقويتها. إن هذا البحث يقوي التخييل التاريخي ويصيّره مؤهلا للشهادة على الماضي وتقييم الحاضر واستشراف المستقبل، وحينما فعل ذلك فسيصبح أمل الأمة لانتصاره على كل أشكال النسيان التي تهدد ذاكرتها. إن جعل التخييل التاريخي مرهونا بالأزمنة الثلاثة المكونة للزمان هو دليل على أن استعادة الماضي تكون مدعومة بقوة المخيلة التي تساعد على إتمام النقص الذي لحق الذاكرة جراء النسيان، ثم إن الخيال يجعل الذاكرة ليست للماضي فقط بل للحاضر والمستقبل.

قائمة المصادر والمراجع:

- بول ريكور: الانتقاد والاعتقاد، ترجمة: حسن العمراني، دار توبقال، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، 2011.
- بول ريكور: الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة الأولى، بيروت 2009.
- بول ريكور: من النص إلى الفعل أبحاث التأويل، ترجمة: محمد برادة – حسن بورقية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى 2001.
- تزفيتان تودوروف: الأمل والذاكرة خلاصة القرن العشرين، ترجمة: نرمين العمري، الطبعة الأولى، الرياض، 2006.
- جورج لوكاتش: الرواية التاريخية، ترجمة: صالح جواد الكاظم، دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الثانية، بغداد 1986.
- عاطف أحمد الدرابسة: قراءة في النص الشعري الجاهلي في ضوء نظرية التأويل، جدار للكتاب العالمي، الطبعة الأولى، عمان 2006.

- عبد الرحمان منيف: القراءة والنسيان – الخروج من مدن الملح، طوى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، لندن 2015.
- عبد الرحمان منيف: الكاتب والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الرابعة، بيروت، 2007.
- عبد الرحمان منيف: بين الثقافة والسياسة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء 2007.
- عبد الرحمان منيف: ذاكرة للمستقبل، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، 2003.
- عبد الله بريمي: السميائيات الثقافية مفاهيمها وآليات اشتغالها المدخل إلى نظرية يوري لوتمان السميائية، دار كنوز المعرفة، الطبعة الأولى، الأردن، 2018.
- عبد الله بريمي: فلسفة التأليف بين الأدب والتاريخ هيرمينوسيا الزمن والمحكي عند بول ريكور، كتاب جماعي: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، تنسيق: اليامين بن تومي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى، الجزائر، 2014.
- عبد النبي حجازي: أنماط رؤية العالم في رواية السبعينيات مجلة الآداب، «الرواية العربية الجديدة»، العدد: 2- 3- 1980.
- فريدة النقاش: نقاط أولية حول الاغتراب القسري في الرواية العربية، مجلة الآداب: الرواية العربية الجديدة، ع:2-3 فبراير – مارس 1980.
- فولفغانغ إيزر: فعل القراءة نظرية جمالية التجاوب (في الأدب)، ترجمة: الجلالي الكدية وحميد لحميداني، منشورات مكتبة المناهل، فاس (بدون تاريخ).
- محمد بوعزة: نحو نموذج معرفي للسردية، كتاب جماعي: فلسفة السرد المنطلقات والمشاريع، تنسيق: اليامين بن تومي، منشورات الاختلاف، الطبعة الأولى 2014.
- محيسن إيناس: إبراهيم نصر الله، «الملهاة الفلسطينية» لا يمكن أن تكتمل. انظر الموقع الإلكتروني: الإمارات اليوم. (2020-04-29) https://www.emaratalyoum.com/life/culture/2009-03-15-1.127576
- نبيل سليمان: سيرة القارئ، دار الحوار، الطبعة الأولى، اللاذقية 1996.
- نزار مسند قبيلات: من التخيل التاريخي إلى التأويل: في رواية الأسير الفلسطيني باسم خندقجي، كتاب جماعي: «في الحاجة إلى التأويل»، تنسيق: عبد الرحيم جيران – محمد الحيرش، منشورات مختبر التأويليات والدراسات النصية واللسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية – الطبعة الأولى، تطوان 2018.
- ولسون كولن: فن الرواية، ترجمة: محمد درويش، دار المأمون – دار الحرية، بغداد 1986.

- يوري لوتمان: سيمياء الكون، ترجمة: عبد المجيد النوسي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، الدار البيضاء 2011.
- B, A, USPENSKU, ET AL, THESES ON THE SEMIOTIC STUDY OF CULTURES (AS APPLIED TO SLAVIC TEXTS), Translated by: Silvi Salupere, Edited by: Ülle Pärli, Tartu Semiotics Library 1, Tartu 1998
- Guo, Hong, A Brief Introduction to and Semiotic, Analysis of Lotman's Cultural Semiotics, From the journal: Chinese Semiotic Studies, Volume 1 Issue 1, June 20, Editor-in-chief: Yongxiang Wang, 2009.
- Umberto Eco: From the Tree to The Labyrinth Historical Studies on The Sign and Interpretation, Translated by Anthony Oldcorn, Harvard University Press, Cambridge, Massachusetts, London, 2014.
- Yuri Lotman and Piatigorsky Alexander: Text and Function, Trans by Ann Shukman, New Literary History, Vol, 9, No, 2, Soviet Semiotics and Criticism: An Anthology, Published by: The Johns Hopkins University Press, (Winter, 1978).